أحزان حزيران ومواقف إزاء الهزيمة !

بقلم محسن الخفاجي

تطرح قصص هذه المجموعة سؤالا هاما : كيف يمكن للعربي رؤية نفسه دون مواربة في مرآة الادب العربي المعاصر ، والى أي حد يمكن لهذا الادب ان يراه ؟

فيما أرى ان هذا السؤال مهم للغاية ، وهو باعتقادي ، أهم الاسئلة التي تشغل بال الاديب العربي المعاصر ، بل انه السؤال الملحاح الذي يظل في ولادة مستمرة ليشكل اعادة نظر في القديم المهتريء نحو التقييم الجديد .

لقد كانت حرب حزيران الشرارة التي أحرقت هشيم كل شيء ، وتجربة بالغة الصعوبة والتعقيد فولدت نسغ المقاومة الحقيقية الحارة التي طرحت بدورها أبعادا جديدة للحرب بالنسبة اليها كما انها طرحت بجرأة بالغة العمق والتماسك قيما جديدة لا يمكن اغفالها او تناسيها بأي حال من الاحوال . واذن فان ظل الهزيمة يطفى بثقله فوق كل شيء ، ويستلب كل الدلالات الرحبة التي تملأ الحياة ، وعلى هذا النحو تفقد الحياة أجمل معانيها فيما تنزاح الاقنعة ، ويضاف الى ذلك ان الانسان يمتليء برؤى جديدة تنفي كل الاشكال والصيغ فلم تعد الحرب التي يريدها هي تلك الفرفعة البطيئة العقيمة المتعثرة ولم يعد مجديا في ابعاد شبح القيود الا الفداء ، ذلك الحل الشديد التألق والوضوح، الفادح الثمن ، وهكذا يكتسب القتال مئات الدلالات الفكرية والقيم الكبرى لانه يظل وحده الموضوع الذي ينحت ملامح الحاضر الايجابي .

ان سليمان فياض واحد من الذين ولدوا في هذا القرن ونشأوا خلال هذه الحقبة الطويلة مع الهزيمة وكانوا جزءا منها ، وهو في مجموعته القصصية الثالثة : « أحزان حزيران » (١) يطرح لنا نموذج الادب الصحي الذي يبشر بولادة عصر جديد آخر .

في القصة الاولى من المجموعة : « الانسان والارض والموت » يتعرض البطل الذي يوشك ان يموت في عملية فدائية بلهجة تتميز بنوع من النقد الذاتي البرائع لاوضاع حرب عام ١٩٤٨ ، وعلى ضوء هذا المحك الحقيقي تتساقط ركامات الواقع أمامنا ، حين ينقلنا البطل بين الانطلاق والجمود ، وبين التحرر والسقوط داخل الركود والتسلط والقهر ، هذه الاجواء التي تولد ايقاعا متصلا من الحركة .

هو اذن واحد من فدائيي تلك الحرب ، والنماذج التي تشارك البطل حياته في هذه التجربة لا تمثل تطلعا الى الحياة بحد ذاتها ، بقدر ما تمثل التطلع الى الحرية بحد ذاتها ، الذي ورثه هذا الجيل والذي أصبح منذ نشوئه عبئا كبيرا . ويقول سليمان فياض عبر هذه القصة أن الرحلة الطويلة بين الولادة والموت يجب ان تخصب بالفداء حتى يمكن ان نثمر كجذور في الارض . هذه الفكرة يقولها البطل الذي ينتظر في أعماق حفرة مع رفاقه مرور دبابات العدو ليتمكن من وضع فنبلته في أسفلها وهو خلال الثلاثين دقيقة التي يقضيها منتظرا دبابته في حفرته المعتمة المعزولة تحت الاغصان ، يستعيد في حلم جميل حياته كلها ، في مرور سريع كلحظات القتال ذاتها ، منذ ان كان تلميذا في مدينة صغيرة تملأ ذهنه القوالب المهترئة حين سمع عن اخبار حرب فلسطين وحين لم يكن له ان يعرف الا القليل عنها ! لكنها تذكره بغارات التتار على بغداد وحروب الصليبيين وهزيمة اعداء الانسان « وفكرة ان الانسان هو أعظم اختراع شهدته الارض وان ارادته هي أكبر طاقة في تاريخها كله » .

تقول لنا رحلة الخروج الى المواجهة لهذا المهاجر المقاتل دروسا كثيرة . كيف يتحول القتال الى ممارسة يومية ، وكيف تصبح الحرب ممكنة في كل الظروف ، للحفاة والعراة والمتخلفين حضاريا . والذين لا يكادون يجدون قوت يومهم « انني أعيش رجلا . اسلم نفسي للحياة والموت معا ، أعانق بوجودي دورة الحياة والموت ، ذلك ما تفعله الشجرة حيال الضوء والتربة والرياح . ما يفعله الطير والنبات والحيوان ، لا يتردد القط البري في الغابة عن مواجهة النمر الكاسر وهو لا يعلم ما نتيجة الصراع .. » ويتكشف لنا ملامح درس آخر يتعلق بالموس التي يضاجعها الرجال ليلا في الغرفة المقابلة ويطالبها ابوها بالثمن نهارا .. « ربما أقتل المأساة ايضا في حياتك يا سنية ، واحرر – مع هذه الارض – جسدك .. »

اذن ما تبقى من الحرية الممكنة هو ان يكون الفداء المحصلة النهائية .

انها صرخة غاضبة لا لانها تضع الكثير من القيم المتعارف عليها على حافة القضايا الحساسة والمحرجة ولكن لكونها تؤرخ لمرحلة خطيرة . غير ان الارضية التي منها يجب أن تنمو افكار المقاتلين لا بد ان تكون واضحة وقوية فهي التي خلقت هذا الاحساس داخل الشخوص ، وأيضا هي التي اتاحت لهم ظروف ممارستهم لافعالهم الانسانية الهادفة على اوسع مدى . فالبطل هنا يعانق دورة الحياة والموت والرفض عبر تجربة الفداء الرائعة مبديا هلعه الشديد على الواقع بشكله الحاضر . حاضرا طموحه ونفسه في اللحظة الآنية دون سواها . ولا يدافع البطل هنا عن الواقع الممكن بالفعل ، الا لانه في ظل واقع كائن لا تتحقق لديه افعال الحب والخلاص. ان رغبته في الكفاح ، هذه الرغبة العارمة التي تسقط دونها كل الحواجز ، تظل عاجزة عن تشييد بناء يحظى بالقبول لديه حتى حينما يحس بان زوابع التغير قد بدأت تكتسح الواقع وانها حتما ستطيح

بكل البناء المتهالك من الجذور لكنه يواصل الفداء دون ان يضع في حسابه كون هذا الواقع المعاش معوقا للنمو والتطور او موازيا له وهو يعني في الوقت نفسه الضرورة لتخطي الحقيقة الراهنة فمأساتهم الحقيقية كاملة في عدم قدرتهم على التواؤم والتمازج مع الواقع .

غير ان خسارة الابطال لدى سليمان فياض وهزيمتهم المريرة كانت ايذانا بانهيار ذلك البناء المتداعي المتهافت ، ولم يكن ذلك الا نتيجة الظل القاتم الذي فرضه منطق الحرب في ظل الخيانة . ان البطل يواجه بمرارة الواقع منذ اللحظة الاولى التي يهم فيها بالحديث مع رفيقه السائق :

« ـ لماذا وافقنا على الهدنة ؟.. كنا قريبين من تل ابيب ..
اجابني وعيناه على الطريق :
ـ الخيانة .
قلت :
ـ لا احسب ان هناك انسانا يخون وطنه
قال ويداه على عجلة القيادة وعيناه على وجهي :
ـ من خان وطنه بتسليح الجيش بالاسلحة الفاسدة يقبل الخيانة مرة اخرى ... »

لقد اصبح هذا النموذج نتيجة لذلك في اطار القضية لان وعيه يتطلب منه مواجهة حارة وصادقة لفض ابعاد الواقع . انه يتصدى لفجيعة عام ١٩٤٨ جاعلا منها المحور لكل انطلاقاته واستقصاءاته التي يستحيل صدها . ان الصرخة التي تضمنتها القصة في النهاية شيء يقرب من الاعجاز ، يقول البطل عن لحظة احتضاره الاخير باكثر الايماءات شاعرية وكثافة لتصل الى اضفاء معنى عميق شامل على الموت . فالموت ليس انتهاء ، انه هنا الحياة بكل عمقها وجدتها :« يالنور الساطع ، والبرودة المرعشة . اسناني تصطك . وهج الشمس يسري باردا في عظامي . رصاص رجالنا يحاصر الهاربين من دباباتهم . يخنق الصراخ الزاعق المحموم . بعضا من عطاياكم لقومي . سوف تتعانقون ايها الرفاق . سوف تجيئون . سوف تدثرونني بالبطاطين . دعوني اولا أغف لانام . وحيا كنت او ميتا ، فاسكبوا في فمي لبنا وملحا . ظامىء قلبي ، وجافة شفتاي . لحظة يا رفاق . ماذا قال عطية ؟
اجل . اجل .
من التراب جئنا . والى التراب نعود » .

فاذا كانت قصة « الانسان والارض والموت » تبرز قضية الارتباط وثبات العلاقات فان قصة « أحزان حزيران » تتناول هزيمة البطل « عربي » المريرة وفقدانه لسامية في حرب يونيو .. لقد اضطربنا لحظة المواجهة وفقدنا الاستقامة وكان الزمن يفصلنا اكثر فاكثر عن لحظة امتزاجنا بالصدق ، وخلافا لكثير من الشخصيات التي يخلقها سليمان فياض تحت ظل هزيمة حزيران الضاربة المريرة ، يصحو البطل في « أحزان حزيران » على الذكرى المنبعثة لاثار الهزيمة ، وبه رغبة حادة لرؤية ظل الهزيمة يخسر عن تكوين النسيج الحي للاحداث الكبيرة التي يعيشها الجيل بينما كان عليه ان يظل راقدا ليموت في برود داخل البيوت المغلقة .

تبدا القصة من اللحظة التي تهاجم فيها الذكريات الماضية لحرب يونيو لتعمق هذه اللحظة الشعورية مؤكدة مرارة الانسحاب عبر رحلة العودة المريرة .

اذن فالانسان ـ الفرد ، لا يمكنه ان يتملص من هذا الاستشراف الضاري ليجتر احلامه الذاتية العابرة او ليحلو له ان يبحث عن مواقع اخطاه وسط الهدوء ، وحتى للذين فقدوا القدرة على مواصلة الحرب . لقد انهال الركام على كل شيء وانتشرت رائحة الاحتراق المروع .

وتمثل رؤية البطل في « أحزان حزيران » انعكاسا صحيا لتلك الصحوة السريعة بعد الهزيمة فلا يمكنه وهو المقعد ان يتخلى عن وطأة الاحداث الراعفة التي تلقي بظلها على كل ما حولها « حق النصر لا اطمع فيه . اريد فقط حربا مشرفة . حتى ولو استمرت الى اخر الدنيا » . ويخاطب امه قائلا : « الحرب ستنتهي يوما يا أمي . يوما سيعم السلام العالم . هذا ما نحلم به وما نريده . سوف يحدث يوما يا أمي ، لكن الطريق اليه صعب ، مليء بالدموع ،والدماء ، والسيقان الضائعة ، والشهداء ، ومن يصابون بالجنون » . وحتى قسم الثار يكتسب قيمة مميزة « جميل أنت أيها القسم ، حين تصبح فعلا حيا وخالدا . قبل ذلك ، يا قسمنا ، لست سوى وعد ارادة حالمة، لا يدري أحد مدى صلابتها . خذ معك أيها القسم صلابة قلبي ، وعمق حزني، وساقي المقطوعتين ، وحياة الشهداء . ومأساة المطرودين المشردين ، من ارضهم العطشى الى الدماء الحرة ، وسوف ترى ، أيها القسم ،اي حقيقة ستكون » .

فما الذي يمكن ان تفعله قتامة الهزيمة لهموم « جندي فقد ساقيه في المعركة ، فانزوى في بيته يعد الايام في انتظار ان يعيد الشعب أرضه المغتصبة .. انه يتسلى بصنع قطع سلاح من الخشب، يتذكر وقائع الفاجعة في سيناء ، يحترق غضبا وشوقا الى النصر .. كانه رمز لشعب مكبل محروم من فرصة الدفاع عن نفسه واستعادة أرضه » (٢) .

اذن تشكل الهزيمة العلامة على الانغلاق والمحدودية ، وفي تعاقب القصص وأكمال بعضها البعض الاخر . ولكن البطل يظل بانتظار ان يأتي الواقع بوجهه الاخر كما يتمثله هو ، فيما هو يتمثل صورة لايام الحرب التي تثار امامه اذ أتاحت له ان يحسن فهم القديم وان يزداد ابتعادا عن السقوط في هوته وان يحسن فهم نفسه كما اتاحت له ان يرى كل شيء في ضوء جديد . انه يتكلم بصوت المسحوقين من أعماق الشعب محملا اياه بملايين الاصوات العذبة التي ترفع مصير كل فرد منا الى مستوى مصير الانسانية واذ ذاك تضمر وحدة الفرد في عمق من الانسانية كلها حين يصير الواقع اليومي الفاسد عتبة الدخول الى واقعه الممكن ويستحيل واقعه اليومي لحظة السقوط الراعفة المليئة بالتوترات . أضيف الى هذا كله انه يريد ان يقيم شيئا جديدا يختلف عن تلك الاشياء التي عهدها من قبل .

في قصة (الغضب) يكتشف البطل وهو واحد من الذين تم لهم الاصطدام بلحظة المواجهة الشرسة ان خياره هو بين ان يكون انسانا او يتحول الى كتلة جامدة ، ذلك لانه يخوض معركة التحرر مع القوالب الجامدة السلفية في الفكر والحياة معا ، هذه القوالب التي تتحول ـ بشكل او باخر ـ الى حواجز ودعائم ثقيلة تعزله عن حركة التاريخ ، وعن التجدد والتغيير ، وتبقيه في ابدية الانغلاق :(وفكر انه الان يرجم لانه غاضب) . ولئن كان بطل (الغضب) محاصرا بملامح الهزيمة كغيره من ابطال سليمان فياض فان الانسان اذ يرفض حياة التقليد والرجعة لا يملك الا ان يفض اردينها ويعريها بحيث تبدو على حقيقتها ، لكي يقدم رؤيا جديدة تفتح كوى جديدة عن تجربة انسانية رائدة . انها تجربة تستشف ملامح الواقع فيما هي تحتضن الواقع لتمثل علامة مهمة على الاصالة والتغير واضاءة شديدة للدروب التي تسير بنا في عتمات الحاضر . ان البطل محاصر بما حوله من قيم موروثة وهو لما يتحرر بعد من الداخل بخلق اشكال وصيغ جديدة ونامية لحياة آخذة بالنمو والارتقاء والتجدد .

قصة (الغضب) تطرح منظرا لقيم المجتمع العربي من خلال استعراض حادثة شديدة البساطة : في اللحظة التي يدرك فيها البطل انه غاضب بسبب من قهره المتزايد مقتنعا بان المواجهة المباشرة هي التعبير الاساسي عن الصدق ، فيقرر بان يتدخل وحتى عندما يتعب فان شيئا من الصورة لا يتغير اذ انه يعرف ان عليه لكي يكون اكثر رسوخا ، ان الصمت يعني قبول المساومة على حريته طوعا واختيارا وانه بذلك يمهد الطريق لمن يحتقر وجوده ويرفضه من الجذور.. هنا تصبح المواجهة حاجة ماسة وملحة تزيد من قدرة المتلقي على استيعاب حدود الازمنة ، واحتواء الواقع ، وادراك ابعاد المأساة

والايماء له بان السكون في مجرى الاحداث ليس سكونا في الواقع اليومي . وانما هو سكون في قدرته على الاستقبال ووعيه.

اذن فالبطل هنا يتعرف على مكانته ومسؤوليته بعد ان يصاب عالمه بالجفاف والعقم .

ليس ثوريا اذن ، من لا يدخل العالم وغايته تغييره ، فكما ينسلخ الانسان من ذاته ، لكي يجد ذاته كذلك يتم استقطاب اكثر اشكال الواقع الممكن نضجا ،فالثوري هو الرافض لجمود العالم ، لايستطيع الا ان يرفضه ، الا ان يغير علاقاته وحين لا يتم له ذلك يكون (قاصرا) اذ ان مهمة التغيير تظل قابعة فيأساس وجوده ، لانه المنغرس في اعماق الحياة من أجل اعادة تركيبها ، ان يتخطى خطوطها الهرمة ويخلق لها الخطوط الجديدة .

بطل (الغضب) ينسى اسمه لحظة اشتراكه في المظاهرة ويحس بالخوف فلا يرمي الحراس بالاحجار ويظل يراقب كيف تنفض المظاهرة ، لكنه يظل يبحث عن اسمه الذي نسيه فجاة ثم « اخذ يقذف كل ما حوله : المارة ، وزجاج السيارات ونوافذ الترام ، ومصابيح الشارع الفلورسنت ، والشرفة التي سقط منها الرجل برصاصة طائشة،وامرأة حاملا ، وفتاة تمضغ لبانة . وراح الكل يجري بعيدا . هدات ضجة الآلات التي تسير ، وارتفعت اصوات آدمية حارة .» هكذا تكسب الشخصيات لديه بعدها الواقعي التاريخي كذلك التركيز على هموم جيلنا والتعبير عنها بكثافة اذ ان (على الفن ان يمتلك القدرة على تغيير الحياة . والا فقد الفن هدفه) وقصة (الغضب) استطاعت ان تحمل فهما عميقا للموضوع الذي تتناوله . صحيح ان فياض يدين عالما فاسدا لكنه لا ينسى في غمرة هذا التاكيد ان يدين الموقف الفردي ايضا « وعندما همد ، ونفدت كومة الاحجار ، جلس على الرصيف ، وحاول ان يتذكر اسمه ، ودائرة الليل والاقدام تضيق من حوله ، وخيط من الدماء يسيل من جرح غائر في جبينه » فالبطل هنا برغم رؤيته للعالم على انه مجموعة من المفردات والوقائع الجزئية التي تشكل الاضداد فهو لا ينظر الى الآخرين على انهم مجموعة من « الذوات » كل منها معزول عن الآخر ، ولكن باعتبار انهم مجموعة من « الموضوعات » تعيش ضمن عالم موضوعي وحين تلغى الثنائية بين تلك الذات والموضوع يحل محلها نسيج محكم من العلاقات الديالكتيكية التي تؤلف عناصر نسيج الحياة الموارة .

واذا كانت فكرة الانتظار البطولي عبر الرحلة الطويلة بين الواقع الانساني والوجود الخارجي هي المنطلق الفكري عند هذا القاص ، فهي المنطلق الحقيقي الذي يقودنا بالضرورة الى ملمح هام من ملامح ادب المقاومة . ان المقاومة في الادب ـ كما يقول الاستاذ صبري حافظ ـ موقف نقدي عميق من كل الاوضاع السياسية والحضارية والاجتماعية التي تساهم في تشويه الانسان او تحد من قدراته وامكاناته ، قادرة على اضاءة العالم امامه ومساعدته على قهر كل ما فيه من مثالب وعقبات . كما انه يعنى قهر الصمت والخوف والهزيمة والضياع والتخبط من خطى هذا الجيل عبر ملاحقات راسخة .

ان مسؤولية القاص ان يحملنا الى رؤية جديدة لآفاق الحياة او الواقع الانساني عبر الشريحة الحياتية والنماذج البشرية التي يتناولها ولن يمكننا ان نتناسى هذه الموجة الصارخة من (ادب المقاومة !!) الذي يتضمن في جوهره دعوة رخيصة لتحويل الشخصيات الانسانية الى هياكل فارغة او معادلات تجريدية .. كما انهم برغم تلك العثرات والمهاوي لا ترصد الظواهر بدقة كيما تحقق اهتمامها باللامح المتناهية الصغر ، ذلك لانها قد تسعى الى التهويل والتركيز على الموت ، الوجه الراعف للحياة دون اعادة النظر لاي من جوانب الحياة الحية المضيئة ، فتقدم انعكاسا مشوشا وسريعا عن الواقع ينبع عن فهم خاطىء وقاصر للتعبير عن حالة او جانب من الواقع تعبيرا مباشرا ، فيقدم شهادة غير صادقة لوضع معين ، ولذلك فان الرؤية هنا ضيقة ومحدودة من حيث هي غير خالقة لصورة جديدة .

فاذا كان على الكاتب ان يكون ضميرا صادقا لهذه اللحظة الحضارية المليئة بالغضب والتمزق كما يقول صبري حافظ ، فانه يهمنا على وجه التخصيص شهادة هذه الاصوات المتباعدة زمانيا ومكانيا ، فهي تنقل لنا وصفا دقيقا لما كان يحدث ويحدث الآن ، يدلي به غالبا شاهد سقط بين وجوه أخرى ، انها باختصار ، شهادة مروعة لذلك الجانب المذهل من حياة الرجال الذين عزلوا عن حربهم فبقوا متمسكين بالكلمات والذهول .

ولكن هذا الادب لم يتحقق بعد بكامل ملامحه شانه في ذلك شان الانسان الباحث عن مواقعه الحاضرة ، لكنه يظل نسغا نقيا يتيح لنا ان نستشف الكثير من العمق والعذوبة ، اذ ان الادب الحقيقي على حد تعبير جان بيارفاي هو القدرة على القول باية علامات ياتي واقعنا نحونا. ان الادب الحقيقي هو الذي ينبع من التجربة المحلية ويربطها بالبعد الانساني الرحب ، الاكثر شمولا لكي تكتسب وجهها الانساني المضيء ، عبر وجهها المحلي والقومي كما يقول الاستاذ محمد الجزائري . اذ ان الدلالة الهادفة هي التي تعطي لنا التفاؤل المشرق (الا ان ضراوة الهزيمة بلغت حدا لا يتيح الرؤية النقية من اوشابها . كانت الامور قبل الخامس من يونيو غاية في الوضوح ، بدرجات متفاوتة ومن زوايا متعددة باختلاف الاجيال وتنوع وجهات النظر . ولكن الخامس من يونيو قد أسدل ستارا كثيفا على الابصار وغشاوة ثقيلة على جميع الرؤى) (٣).

الشخصيات في (احزان حزيران) لا تحددها خطوة عامة عريضة كما انها لا تتميز بعضا عن البعض الآخر بصفات نهائية . واذن فمحلية هذه القصص لا تاتي من مكان حدوثها ولا من الشخصيات وما يصدر عنهم فقط ، ولا من الاحداث التي تتميز بها بيئة عن أخرى ، وانما بهذا الوصف المتقن للاحداث المتاني حد التخطيط ، وبالعرض الواضح القوي المليء بالتشويق . ان المؤلف حين يكون قد قدم لنا الجانب الزمني والجانب الروحي من حياة نماذجه خلال عرضه للبنية الفوقية والبنية التحتية للمجتمع يجعلنا على المام كامل بشؤونها دون ان يخرج على هدفه الادبي من تقديم انعكاس راق لنماذج انسانية تتحرك ضمن هذه البيئة وترتبط بها بوشائج متينة .

واذا كانت هذه العلاقة بين الانسان والارض تاتي مرة عنيفة ، مفاجئة قاهرة ، ذات صخب ودماء ، فانها في وجهها الآخر تمثل الامل والطمانينة والهدوء .

تطرح قصة (الرجل والسلاح) قضية الانسان الذي يمضي حاملا حياته وسلاحه مفتديا لآماله ولحقيقته كانسان « العالم لم ينته بعد ، ولن ينتهي أبدا طالما هناك منا رجال . الشمس ما تزال تشرق . وستشرق غدا مرة ثانية ، وثالثة ورابعة . سنعود نحن او ابناؤنا او احفادنا . رجال سيدفع بهم وادينا دائما الى هضابك وقممك وسهولك يا سيناء . » .

خلال الانسحاب يكتشف صلاح انه نسي سلاحه وعاد بدونه ، وحين يحاول العريف ان يقنعه بان ذلك لا يهم امام البنادق الكثيرة التي تظل بحاجة الى ايدي ، يرفض بحدة ويذهب ليعود بسلاحه وهناك يخر جسده برصاص طائرة تنقض على الوادي الذي يعدو فيه . لقد كشفت هذه العودة القاسية المريرة عن اندفاع حاسم لتصحيح عميق لكل الاخطاء الماضية ولكنها دعوة ينقصها الكثير من الاحكام كما يبدو لنا للوهلة الاولى .

ان هذا لا يعني ان قصة سليمان فياض كانت تحمل كل محتواها الانساني النبيل بشكل اكثر اقناعا وتجاوبا مع العصر ولكن لتناسق وحدتها الداخلية ولعطائها المضموني وجدتها وصدقها الفني والفكري بكامل اجزائه ، انها مقنعة ، تقدم الانسان المهزوم هنا (وهذا لا يبرر بانه سينهزم كل عمره) . ان الهزيمة هنا تجيء علامة تومىء الى نصر ، ولكنه لم يستطع أن يحقق النصر لان الحياة ذاتها حينذاك وضمن اطارها التاريخي لم تستطع الا ان تقدم الهزيمة والرؤى الواقعية ، لكن هذه الخيبة التي تجيء هنا واقعية ، تكاد تكون مصيرا لا مناص منه ولكنها

لن تفرض ـ برغم ذلك ـ اليأس المطلق . انها نظرة متألقة من اجل سماء نقية . ان تجربته ـ أي البطل ـ لا تمثل ، في جوهرها ، الا مظهراً يصدر عن عاطفته ونفسه والمجموعة الشائكة من خلفياته النفسية والفكرية والحياتية ، وهو اذ يمضي حاملا حياته وسلاحه مفتديا لآماله ولحقيقته كانسان ، يخسر كبقية ابطال سليمان فياض حياته عبر العنف الذي تطرحه تجربة حرب ضارية ومروعة فابطال فياض رجال عاشوا هزيمة مرة دون ان يدخلوا معركة حقيقية او يطلقوا رصاصة ، محرومون من الاشتباك ولديهم الرغبة الصادقة للمساهمة مع الآخرين في المعركة والتي تقف دونها حوائل ودون امكانية انضاجها كمساهمة بناءة آلاف العوائق . يضاف الى ذلك ان مجموعة من المخاوف تنشأ في نفوسهم وهي مخاوف مميزة عن احساس بالمهانة لان الانسان لم يعد في مواجهة العالم الخارجي الضاري ، كما هو من قبل . أصبح له وجود مستقل له ملامحه الخاصة . مكون في معظمه من الخيبة والاحلام الغامضة والانتظار الواهن الذي تتكون قشرته من قهر فاضح وبحث عن وجه لشمس دافئة، وهكذا فان البطل الذي يمارس الكشف الاصيل عما هو انساني وايجابي وثوري في الواقع فان كلماته تتحول الى نسيج موقف ثوري متكامل يتمثل في نفاذ النظرة لما يجري هنا أو هناك ، والاحساس البكر بالحياة ونقيضها الموت على هذا النحو الميال الى العمق والتركيز .

ان عالم البطل في قصص (الانسان والارض والموت) و (احزان حزيران) و (الرجل والسلاح) و (الغضب) يرتقي الى درجة الرؤية الحضارية لكل القضايا الجوهرية للامح الواقع من خلال آفاق ورؤى جديدة ، عالم يتشكل من الغضب والسخط والمرارة والاندحار . انه ـ على نحو من الانحاء ـ يتجاوز أخطاء الانسان العربي من حيث هو النقيض وهو الوجه الآخر المتغير الذي خلقته الهزيمة وهو هنا يعبر كل العوائق التي تحده ليكون ضمن حرارة وعي جديد من حركة حياته المتدفقة ، المتجذرة في ارضية الماضي ، المتحركة بثبات نحو المستقبل ، الهادفة الى اغتيال القديم الفاسد كيما يولد الجديد حين يضع الانسان احلامه وغضبه في مواجهة عدو . لقد اثبتت تجربة الحرب انها قد فتحت العيون على حقائق جديدة لم تكن معروفة من قبل وانها اكدت عن جدارة فاعلية الرغبة الصادقة في الفداء وانبثاق صحوة الانسان الذي يبرىء نفسه من أخطائه . الشخصيات في ظل الحاضر رجال يتعلمون كيف يكون القتال حياة يومية . كيف يمكن للانسان ان يرتفع بالقضايا الفردية حتى تنصهر وتذوب في الكل المتكامل والاكثر شمولا وصدقا وانسانية ، فنادرة هي القصص التي نجحت في التعبير عن اجواء الهزيمة وباستثناء بعض قصص : (غسان كنفاني) و (محمد ابو المعاطي ابو النجا) و (محمد خضير) و (احمد خلف) و (خضير عبد الامير) و (زكريا تامر) و (وليد اخلاصي) و (جمال الفيطاني) و (سليمان فياض) و (حيدر حيدر) لا نكاد نعثر على اعمال تتناول هذا الجانب بنضج دون ان تقع في هوة المباشرة والخطابة الزاعقة ، ففي الاعمال المرهفة الناضجة ينفي الشخوص الواقع بهذا الشكل العاجز مؤكدين شرعية التغيير في جوهره : تغيير الواقع وتجاوزه . انما يعني هذا كله عودة لاضاءة تجربة انسانية يعبر فيها القاص تعبيرا فنيا صادقا وفي بساطة وهدوء بالغ تنكشف لنا الاعماق البعيدة الغائرة للتجربة الانسانية ضمن نغمة تفاؤلية تزهر بمختلف الرؤى الندية .

اما قصتا (الانسان والارض والموت) و (احزان حزيران) فهما اشد عمقا بكثير باعتبار انهما يصدران عن الشعور العميق الواثق من ان معادلة الحياة والبقاء قد تم تحقيقها بعد استشراف ملامحها وانها قد بدأت حقا بما هي عليه من صلابة وتماسك . اشاعة شحنات قوية من التفاؤل والوعي الايجابي ، داخل قتامة الوجود اليومي الضاري لقاتلين اثر عودتهم من ساحة القتال محملين برائحة الحياة او الموت ، او استشهادهم في الارض ، هذا التجسيد العميق الغائر لكل ما تخلف في اعماقهم من التشوه الضاري . هم رجال يواصلون بداب بالغ قتالا متصلا ضد الموت ، وتحاول القصة ان تقدم صورة للانسان تسهم بقدر طيب في اغناء الوعي بمعنى الهزيمة ومذاقها للتعبير الامثل عن لحظة ارتقاء الانسان حين تسقط الاشياء بمقوماتها وطاقاتها اسيرة النار . وهو هنا لا يقدم صورة نقية لنضال الانسان وعلاقته الحميمة بالارض بل يقدم الصورة الواقعية العميقة الدلالة والمعنى للانسان الذي يخوض كل الاحزان من أجل استعادة انسانيته المفقودة كبداية لا بد منها لتحقيق انتصاره على عالمه فتطرح صدى لفكرة العودة الى الوطن حيث تسري الحياة فيه بعودة ابنائه .

ان ابطال فياض متشابهون ، وهم يتطلعون مثلنا الى عالم يسوده الفرح بعيداً عن ركامات القيم المهترئة ، ولكن يبدو اغلبهم مقهورين تتضح ملامحهم داخل الشريحة الفنية المكتملة لابعاد القهر لدى انسان العصر ، كما انه يركز بشدة على الانطلاق من الارضية المحلية لابطاله لاجل رصد أزمة الانسان في العصر ، لهذا نرى ابطاله يتمتعون باستمرار بملامح خاصة للقهر الطبقي كما في بعض اعماله السابقة نذكر منها قصته الرائعة (الغريب) وفيها نجد التعرية للعلاقات الصدئة المزيفة والكشف عن الصرخة التي تعني الخوض العنيف في قتال لاجل الارض والمساهمة في مجابهة التحدي والقسر القاسي ، تبدعه تلك الرؤية الناضجة للواقع والانسان الملتزمة لجوانب الصدق الفني والشعوري .

وفي القصة « زيارة في الليل » يتعرض فياض لموضوعه الاثير وهو الكشف عن عالم القرية ليقدم عبره طرحا جديدا لابعاد المقاومة التي تمثل المعايشة على جميع المستويات من خلال الالتصاق وخوض غمار الاحداث اليومية الشديدة الصغر (٤) .

تطرح قصص (احزان حزيران) هذه الفكرة الرائعة : ان الهزيمة هي الوحش الذي لا بد للانسان من ان يتحداه ويصارعه عبر الوجدان الجمعي ، ولا يكف عن مصارعته ما دام يتجذر في أرض الواقع وما دام هناك صراع خفي بين أشد حالات الحياة تألقا وازدهارا ، وكذلك اشد صورها قتامة ، التي يصوغ منها حلمه واشتياقه ، ويلوح لنا بخفة ذلك المعنى الانساني العميق المختفي وراء الخوف والشجاعة المتحدية لكل حزن او سور او موت ، التي تحيا انتظار ضوء الامل الذي يتجسد عبر حرارة الاشياء من هذا العالم ، عالم التفاصيل الصغيرة حيث يصل الانسان الى اقصى حالات القدرة على الخوف المتوهج والتعاطف مستمدا قوة جديدة وولادة اخرى من عالم الذكريات . انه قتال لا هوادة فيه مع شرور العالم يكون فيه الانسان عالما كيف يمتزج الحب بالموت في كل صوت على طريق النضال كامتداد عميق للاحساس بالحياة يتبدد مخلفا احساسا اعمق بالمهانة . ان عليه ان يواجه بحذر صور القسوة والموت والذعر ليؤكد قيمته وقدرته عن طريق الممارسة الواقعية العملية التي تؤدي الى تغيير جذري في قيمها . انه يريد ان يتجاوز ماضيه ان يحرك جزئيات الواقع ويغيرها ، وهذه الرغبة في الرفض اوسع من ان ننظر اليها من الخارج ، مع ذلك فانه لا يفكر الا في حياته اليومية كما لو انه يسعى الى رفضها وانها طريق لا بد من تجاوزه وانحساره لكنه يدور

زهرة من دم

مسرحية في ثلاثة فصول

تأليف الدكتور

سهيل ادريس

منشورات دار الكاتب العربي ـ القاهرة

عليه باستمرار دون ان يتخطاه في الوقت الذي لا يتوانى فيه عن اطلاق صرخته امام بشاعة الحاضر بشكله الراهن .

ان « احزان حزيران » نموذج من الادب الصحي المتفائل ، ولم يكن هذا التفاؤل والاشراق ضربا من التكرار . لقد انطلقت هذه القصص من ارض الالتزام الراسخة ، ذلك لانها كشفت عن طريق المواجهة : أعماقه وابعاده . لم تعرف فيها الشخوص العويل والصراخ الزاعق بل انها كانت تمارس بعمق ادراكها لدورها ومسؤولياتها وغلب عليها باديء ذي بدء طابع الخطوة المخلصة في طريق رفض الهزيمة ، ولكن من الضروري ان يتيح سليمان فياض لهذه النماذج قدرا ملائما من الصدق الفني حين يتاح لها النجاح في توصيل افكارها ، وما تريد ان تقوله الى القاريء بطريقة مقنعة . فالقاريء يفقد مع بعض الشخوص اي انفعال كانهم مجرد ظلال ، ظلال خفيفة تتحرك في واقع حالم . لكنهم ايضا التجسيد الحي لعقم هذه الاستقصاءات الغائمة كما برزت عبر هذا الصدام اليومي الذي نستطيع ان نستخلص منه بوضوح كلي ان هذه النماذج تمثل النماذج المتقدمة في الحقيقة التي تطرح شمول المغزى وعمق الدلالة وثراءها عبر ذلك البعد الرمزي البارع الذي كشف عن مقدرة للعبور من الجزئي « الخاص » الى الشامل « العام » .

لقد تحققت في (احزان حزيران) صحوة الالتقاء العظيم بغموض العلاقات على طريق المسيرة الطويلة لهذا الجيل والاستشراف الخطير للكثير من الرؤى والايماءات ، بالاضافة الى كل تلك التهويمات الخائبة ـ عبر الخوف والانتظار ـ والتي لم تنقذ العديد من الشخوص من براثن الازمة فشكلت هذه القصص الارهاص المتقدم بتجربة رائدة في القصة العربية بالغة النضج والثراء (٥) .

واذا كان البعض من النقاد يعتقد بان القصة على خلاف الشعر لا تستطيع ان تقدم مسحا شرسا لابعاد الواقع وانها تظل بحاجة الى استيعاب لتجربة الحياة عبر الموت واحساس اشد عقلانية واتزانا بالتجربة الانسانية ، فان هذا التقييم يظل قاصرا وبعيدا عن التحقق امام ما قدمه سليمان فياض حتى انه استطاع ان يرفد القصة العربية برافد جديد يمثل تيارا متقدما وشديد النضج ، لاننا هنا بازاء قاص لا يرى الاشياء ملامح لتجارب ذاتية معلقة بمقدار ما تصدر عن رؤى فكرية ناضجة تنتقل بالمشكلة المعروضة من مرحلة التجربة الجزئية الخاصة الى اطار التجربة الكلية العامة غير المحدودة .

سليمان فياض قاص يتحمل مسؤوليته بازاء احداث العصر رافضا موقف الرضوخ والاستسلام . ان غمس مخيلة القاريء برائحة الحرب وايقاعاتها لتبلغ اقصى درجات النفاذ والروعة قد تحقق على يدي هذا الكاتب الموهوب .

العراق (الناصرية) **محسن الخفاجي**

الهوامش

١ ـ (احزان حزيران) سليمان فياض ـ نشر دار الآداب ببيروت ـ ١٩٦٩ .

٢ ـ آثار هزيمة حزيران في القصة العربية المعاصرة ، محمد دكروب ـ مجلة الآداب عدد اكتوبر ١٩٦٩ .

٣ ـ الادب المصري بعد الخامس من يونيو ، غالي شكري ـ مجلة الآداب عدد مايو ١٩٦٩ .

٤ ـ لم نتعرض لقصة (جسر حي) لاعتقادنا بانها في مستوى دون مستوى قصص المجموعة ، ولكونها تطرح تسجيلا لعملية فدائية نجد شبيها لها في قصة كقصة (الانسان والارض والموت) .

٥ ـ حاولت ان اتجنب قضايا الشكل والسبب في ذلك يرجع الى انها غير ذات قيمة امام هذا العمل الفني الناضج الذي يؤرخ لمرحلة هامة يحياها الجيل ويتفاعل مع احداثها .

هزيمة

تكحلت عيناهما بلحظة اللقاء
من بعد ما تقابلا
من بعد ما طواهما الغروب في مشارف النهار
ولحظة اللقاء للغريب لحظة انتصار
ما أروع اللقاء للغريب اذ يؤوب
والشوق ما يزال نسمة على طريق
وبسمة على الشفاه لا تبين
دقائق ونعبر الحدود
نعانق الهوى الجريح قبل أن يموت
وقبل أن يلفه السكوت

***

لكنما الشرطي في الميدان هز منكبيه
وأشعل الاشارة الحمراء
أدار ظهره العريض دونما سبب
وقال كلمته
يا أيها المسافر الغريب كيف عدت
والف عام في الطريق ما تزال الف عام
مجدافك المصقول بالحديد والصدف
انهد وأنكسر
والريح هذا العام قاتلة
ونسمة الشمال لا تطاق

***

لان أبخر الكلام صامتة
والحائط العجوز الف عين
نسيت أنني مضيت دونه بلا يدين
وسار وحده بلا نشيد
وظل كلمة محروقة الحروف
ما قالها المسافر الغريب
يا ويح من يؤوب دون ان يكون في انتظاره حبيب

القاهرة **أنيس احمد البياع**